وجهاً لوجه ما كان

ادارة ذاكرة الحروب اللبنانية

رندة فرج

يعرض مركز «أمم للتوثيق والأبحاث» بين فترة زمنية وأخرى، اعمالاً سينمائية وثائقية في سياق المشروع الذي تبناه تحت عنوان «ما العمل؟- لبنان وذاكرته حمّالة الحروب»، وهو عنوان رئيسي، مرفق بعنوان ثان، هو «وجهاً لوجه ما كان».

هذه المقاربات تحاكي مرحلة عصيبة وسوداء من تاريخ لبنان الحديث، وتحديداً مرحلة الحرب اللبنانية الأهلية التي استمرت زهاء عقد ونصف العقد، من حقبة السبعينيات والثمانينيات من القرن الفائت.

... من هنا شكل انشاء مركز «أمم للتوثيق والأبحاث» مؤلاً ثقافياً مختصاً بتوثيق دوامات العنف والحروب التي عاشها لبنان، بدءاً من «كل الفترات الاعدادية لهذا العنف، او ما يسمى فترات التحضير». وقد اندرج مشروع «ما العمل» السينمائي، ضمن الندوات والأنشطة التي تُعنى بكيفية ادارة ذاكرة الحروب. وآخر هذه الأنشطة تمثل في العرضين السينمائيين التوثيقيين اللذين عرضا في الاسبوع الماضي في قاعة المركز تحت عنوان عام هو: «الحرب بالمذكر... الحرب بالمؤنث» وذلك في سياق تجديد اللقاء والنقاش حول وجهات نظر السينمائيين والمثقفين، وأبطال القصص أنفسهم الذين شاركوا في أتون الحرب. وقد اندرج هذان العرضان كجزء ثالث منجز في هذا المشروع، فحمل العرض الأول عنوان «لكي تكون فقط ذكرى... نساء مقاتلات» وهو وثائقي بتوقيع سحر عساف (٢٠٠٨) مدته عشرون دقيقة، وقد «عملت عساف على فيلمها في اطار تحصيلها العلمي الجامعي العالي، فجمعت فيه خبرتها الصحفية والعلمية. ومما مر في هذا الفيلم نستقطع العبارة الآتية: «... كان متصاوب، وكان عم يصرخ فاقد اعصابو. صابو نوع من الهستيريا. انو انا مش مقهور لأني انصبت بالمعركة. انا مقهور لأنو بعت اللي صابتني» هذا ما ترويه فاديا بزي احدى المقاتلات الأربع اللواتي يسترجع هذا الفيلم شهاداتهن.

اما العرض الثاني فارتاح الى عنوان «من الحرب الى المصالحة» وهو بتوقيع مؤسسة «أديان» بالتعاون مع مجلس كنائس الشرق الأوسط (٢٠٠٨) مدته ١٤ دقيقة. ومن اجوائه نقتطع: «يا أسعد... كيف نحنا كنا بدنا نقتل بعضنا من زمان معقول؟» هذا السؤال يوجهه محي الدين شهاب الى اسعد شفتري، في اطار المشاهد التي تضع اثنين من مقاتلي الحرب اللبنانية وجهاً لوجه.

لقد كان للمقاتلين، وللمقاتلات، ما يعترفون به لمواطنيهم اللبنانيين ولكل من يهمه الامر. وليس لأحد ان يجزم- يقول القيمون على المشروع- بأن كلمات هؤلاء الستة، تستغرق كل ما عاشوه وشاهدوه وشهدوه. ولكن الواحد منا لا يملك ألا يُدهش لصراحتهم في الحديث عن تلك المرحلة من مراحل حياتهم، حيث اندفعوا تحت عنوان «النضال» الى حمل السلاح وتصويبه في وجه جيرانهم الاقربين والابعدين. ولا يملك المشاهد ألا يقف طويلا عند ما يقولونه عن الحياة والموت في الحرب، حيث منتهى الحياة البقاء على قيدها. وحيث يقتصر الموت على خبر في جريدة يومية او صورة على ملصق. وبالرغم من ان الشهود الستة يروون حرباً «واحدة»، فلكل واحد قصته، ولعل فرادة هذه القصص هي ما يجعل الحرب التي ننحو الى حملها على محمل الجملة اكثر التواء وتعقيداً و«بشرية» مما نظن.

ولعل شهادة رينا حنا المقاتلة السابقة في حزب الكتائب/ القوات اللبنانية، تصبح مدخلا الى الشهادات المقترحة في هذا اللقاء، حيث قالت: «اذا حكيتيها مع ناس حابين يسمعوكي، حابين يعرفوا ليش وعندهم هالحشرية مع الاحترام لرأيك، هيدا بيساعد أكثر».

ان المتفرج العادي والمثقف يهاله هذا البعد الصادم على واقع الارض الساخنة، ويعجزه الربط بين مفاعيل الكلام ومفاعيل السلاح. فمَنْ الجاني ومَنْ المجني عليه؟ هذا السؤال لا يصلح لالقائه على الحرب التي عشناها نحن اللبنانيين... لأن الجاني كان مجنياً عليه بالكلام، ولأن المجني عليه كان جانياً بالسلاح... ثمة مماهاة هنا مع مرثية التقاتل، وحتى مع مرثية التصالح... والخوف كل الخوف ان يتحول عنوان «مشروع أمم للتوثيق»: «وجهاً لوجه ما كان»، الى عنوان: «وجهاً لوجه الآن».

الى ذلك، كان للناشر والمخرج لقمان سليم، وهو رئيس مركز «أمم للتوثيق»، مساهمة مهمة على صعيد المصوغ السينمائي اللبناني المختص بالكلام عن الحرب اللبنانية، ومن المهم ان نذكّر في هذا المضمار بالفيلم الذي عرض منذ عامين تقريباً في بيروت ولمرة واحدة تحت عنوان «مقاتل» حيث شارك لقمان في اخراجه واعداده بالتعاون مع المخرجة الالمانية مونيكا بورغمان. وفكرة هذا الفيلم ناتجة عن السؤال المحوري الآتي: «ما بقي من المجزرة- مجزرة صبرا وشاتيلا- في ذاكرات القتلة أنفسهم؟». وقد تمكن المخرجان من تسجيل شهادات القتلة الذين شاركوا في المجزرة، فأتت شهاداتهم «عذرية» لأنهم غير معتادين على الكلام المنمق وعلى الكذب السياسي. ولكن يبقى ان ما من احد يستطيع ان يقدم رواية كاملة عما حدث في تلك المَقْتَلة، لأن ما من احد من القتلة ومن الناجين كان موجودا في كل مكان في ساحة المجزرة. فيما بالمقابل فقدت الضحية الموجودة تحت التراب «قدرتها على الكلام ورواية ما حدث لها».

ان افلاما لبنانية ذات نوعية وثائقية تحاكي الحروب، وتستنطق المقاتلين، وتتحرى عن القتلة، تزداد عددا وتوجها في سبيل الوصول الى البوابة التي تؤدي باللبنانيين الذين أغرقوا انفسهم في مستنقع الدماء، الى الدخول في «المطهر» وممارسة الاعتراف المتبادل وابداء الندم... لكن احلام المثقفين والسينمائيين في واد... ووقائع المسيسين والمقادين في واد آخر. كمن قال ان مشاهد التحضير لدورات العنف لم تظهر بعد؟ ومَن قال ان التجييش المذهبي والطائفي لم يشتعل بعد؟ حتى «مؤسسة السلم الأهلي» التي عملت وتعمل على الجمع بين الاطراف والفئات اللبنانية، من خلال ورشات العمل والندوات، والمؤلفات التي وضعتها وانجزتها منذ اعوام، والتي لا تزال تجهد في سبيل احقاق ركائز هذا السلم الأهلي، نجدها تقف مكتوفة الأيدي امام اعصار الشارع، وتحرك اوراق اللعب وفق الادوار الموزعة لمصلحة اللاعبين.

ويأتي السؤال الملح: هل من الضروري ان يفتح الفن السابع هذه الملفات الصادمة والساخنة عن الحرب اللبنانية؟ وما هي الدروس التي استفاد منها الجيل الجديد لاتقائه الدخول في حرب عبثية اخرى؟ يستحق المواطن اللبناني ان يبتعد عن اصوات المدافع، وعويل الصواريخ، وان يقف على تلال العيش الحضاري، في بيادر الادب والصحافة والاقتصاد والموسيقى والمسرح والفن التشكيلي واللغات- يستحق ان يواصل ما أسسه الرواد في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين وان يمحو نهائيا اللون الاسود الذي صبغ العقدين اللذين تلاهما، ليدخل بثبات الى لبنان- سويسرا الشرق، بالاسم والفعل معاً ■

من أرشيف الحرب